المنهج الاستدلالي للقرآن الكريم

في فكر الإمام النورسي

بقلم

الدكتور

سامي عفيفي حجازي

أستاذ العقيدة والفلسفة بالكلية

بداية يحسن ان نقول إن المنهجية فى عصرنا الحديث قد احتلت مكاناً بارزاً فى كل جانب من جوانب البحث والدرس ، ليس هذا فحسب بل وفى سائر أنواع الأنشطة البشرية فكراً وعملا ، وكثر الحديث عن أهميتها كأنها شيء من مبتدعات العصر « واكتشافات رواد الفكر ، لم يقل بها صاحب درس سبق » ولم يأت بها تشريع تقدم ، ولكنها كامنة فى القرآن الكريم منذ كان .

إن المنهج هو الأسلوب الذى تمارس به الأعمال ، وهو الطريق الذى يضمن الوصول إلى الغاية بسلام ، وذلك لأنه يحمل فى طياته معنى النظام ، وللنظام أهميته الكبرى فى الوجود كله ، فهو الصورة التى أقام الله عليها الكون كله قال تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » (١) .

إن القرآن الكريم بجانب دعوته إلى التوحيد قد تناول مقولات الأديان وآراء الملل والنحل والمذاهب التى كانت منتشرة وقت التنزيل ، فناقشها ، وبرهن على بطلانها وفسادها ، وقارن بينها وبين الدين الصحيح الذى هو الحق ، والذى ارسلت به الرسل عليهم الصلاة والسلام وهذا مانادت به الكتب السماوية وجميع الأديان من عهد أبينا آدم عليه السلام إلى أن بعث سيدنا محمد — ﷺ — من مطالبة الأمم وتكليفها بتوحيد الخالق تبارك وتعالى ، وانفراده بالتصرف المطلق وتنزهه عن كل نقص ، واتصافة بكل كمال ، غير أن ماعدا القرآن من الكتب السماوية سلك طريقاً فى بيان ذلك المقصد الأسنى ، يتناسب مع استعداد أهل زمنه الذى نزل فيه . وهو ذكر العقائد مجردة من الدليل ، حيث إن أهل ذلك الزمن لم يكونوا قد استعدوا للنظر فى الآيات الكونية .

أما القرآن الكريم فقد نزل فى زمن كان الإنسان فيه قد بلغ رشده ،

---

(١) سورة القمرة الآية ٤٩ .

وأصبح أهلا للتفكير فى ملكوت السموات والأرض، مستعداً لفهم الأدلة وللوقوف على الحكم والمصالح المقتضية للتكليف.

ولذلك جاء هذا الكتاب الحكيم سالكا منهجاً، باين فيه سائر الكتب المقدسة، فقد طالب المكلفين بالعقائد الدينية وبرهن على ذلك المدعى، ورد على المخالفين وفند قولهم، وأيده بالدليل، وحث الإنسان على التفكير فى الكائنات وسائر المخلوقات (١).

وعلى هذا فالمتأمل فى قضايا الفكر الإنسانى يقف على أن قضية الألوهية قد شغلت الفكر البشرى منذ وجوده من حيث العقيده والسلوك، ولم تنقطع السفاره بين السماء والأرض لتقرير هذه القضية وإحقاقها بواسطة رسل الله تعالى من الملائكة والناس قال تعالى: «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس» (٢).

وكان ختم هذه الرسالات برسالة الفرقان الذى أضاء الوجود العقلى والكونى بقدوم نبى الإسلام سيدنا محمد — ﷺ —.

وبعد ختم النبوات بنبوة سيد الخلق — ﷺ — قام علماء الإسلام بمهام التصحيح لكل ما يخالف بناء الدين فى ذات المسلم وذلك فى دائرتين هما:

— دائرة التكاليف الإيمانية.

— ودائرة التكاليف العملية.

---

(١) راجع القول السديد فى علم التوحيد ج ٣ ص ٥٢ لفضيلة الشيخ محمود أبو دقيقة تحقيق فضيلة الأستاذ الدكتور عوض الله حجازى، ط مجمع البحوث الإسلامية ط ١٩٩٥ م.

(٢) سورة الحج الآية ٧٥.

وعلماء الإسلام الذين تناولوا قضايا الفكر منذ فجر التاريخ قد كتبوا فى هذا، كما تابعهم خلفهم فى استمرار الكتابة، ولقد كان بديع الزمان (١) النورسى صاحب مجموعه كليات رسائل النور من العلماء العاملين لتجلية حقائق التوحيد أمام تيارات متعددة، كالدهرية وأنصارها، وأهل الطبائع. والصائبه والبراهمة، والثنوية، التى هبت رياحها من بلاد فارس حيث كان المسلمون يعيشون فيها، وعقيدة التثليث التى كانت تساكن المسلمين واليهود، وغيرهم من المخالفين.

لقد كان بديع الزمان سعيد النورسى بثاقب فكره، وقوة حجته قد

---

(١) التعريف بالنورسى:

هو الإمام بديع الزمان سعيد النورسى. المولود فى قرية نورس الواقعة بشرق الأناضول عام ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٣ م.

المتوفى ٢٥ من شهر رمضان عام ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م.

لقب ببديع الزمان لظهور ذكائه ونبوغه منذ الصغر، وهو من أسرة كردية صالحة تقية تعمل بالفلاحة والزراعة، وكا أبوه رجلا ورعا عابداً. وكان يضرب به المثل، لم يذق حراماً، ولم يطعم أولاده من غير الحلال. حتى أنه إذا عاد بمواشيه من المرعى شد «كم» أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين.

وكانت أمه امرأة صالحة لا ترضع أطفالها إلا وهى على طهر ووضوء ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وفى هذا الجو النقى كانت نشأة بديع الزمان النورسى، ولذا ظهرت آيات النبوغ والذكاء عليه منذ طفولته، حيث كان دائم السؤال والاستطلاع لكل ما استغلق عليه فهمه، فكان يحضر مجالس الكبار =

غطى معظم قضايا هذا الدين ، وتناولها بالبحث والدراسة ، والتحليل القائم على الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية فى مؤلفاته مجموعة كليات رسائل النور ، التى تشتمل على غرر الفوائد التى هى للدين قواعد ، مع أنه عاش أكثر من ربع قرن من الزمان فى ظلام السجون والمنفى ، ولكنه استطاع بتوفيق الله أن يحمل شعلة النور وسط ظلام الأيام ، فكانت الكلمة رائدة فى إرساء المعالم والعلامات المضيئه التى تتمحور حول بيان ماهية الإيمان (١) ، كما هى فى السؤال التالى :

= ويصغى إلى ما يدور بنيهم من مناقشات فى مسائل شتى ولاسيما علماء قريته الذين كانوا يجتمعون فى منزل والده ليالى الشتاء الطويلة ، ويمر بخاطره مرة سؤال ظريف إذ يقول عن نفسه .

« لقد حدثُت خيالى فى عهد صباى : أى الأمرين تفضل ؟ قضاء عمر سعيد يدوم ألف ألف سنة مع سلطنة الدينا وأبهتها على أن ينتهى ذلك إلى العدم ، أم وجوداً باقياً مع حياة شاقة ؟ .

فرأيته يرغب فى الثانية ويضجر من الأولى قائلا :

« إنى لا أريد العدم بل البقاء ولو كان فى جهنم !!!

كان أنوفاً عزيز الجانب ، لا يقبل الضيم ، وينفر من الظلم منذ صغره وقد تأصلت وقويت هذه الأخلاق عنده عنـــدما بلغ مبلغ الرجال . وانعكست على كل تصرفاته مع من قابلهم من مسؤلين وحكام ، راجع المجموعة الكامله لمؤلفات رسائل النور ح ٤ ص ٢٧٨ وراجع الأستاذ / إحسان قاسم الصالحى فى شخصية بديع الزمان سعيد النورسى نظره عن حياته وآثاره ص ٢٠ ط الثانية ١٩٩٦ م .

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورسى مجلد الكلمات من مجموعة كليات رسائل النور .

كيف يمكن للمسلم أن يعرف بإيمان ؟ أو أن يؤمن بمعرفة ؟ وبصيغة أكثر وضوحاً .

كيف يستطيع أن يجعل من الإيمان طريقاً إلى المعرفة ؟

ومن المعرفه طريقا إلى الإيمان ؟

وفى البيان لهذا السؤال تتلخص المعرفة الإيمانية التى خط بديع الزمان ملامحها ، وأقام أركانها انطلاقاً من قول الله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (١) .

حيث يرى فى ضوء هذه الآية أنه مامن معرفة مما تتبادلها العقول فيما بينها إلا وترجع فى أصولها الأولى إلى واحدة من المعارف الثلاث التالية :

١ — معرفة كونية تشمل علوم مافى السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

٢ — معرفة إنسانية تشمل الكينونة الإنسانية وكل مايتعلق بالإنسان فرداً ونوعاً ظاهراً وباطناً .

٣ — معرفة إلهية ترتبط بوجود الله تعـــالى وبربوبيته وشئونه فى خلقه .

وهذه المعارف الثلاث متلازمة يلازم بعضها بعضاً ، ويؤيد بعضها بعضاً ، ويدل بعضها على بعض وهى فى ارتباط دائم لاينقطع ، فكونى مؤمناً يلزمنى أن أعرف ، لأن المعرفة تقوينى وتعلمنى لماذا يجب أن أكون مؤمناً .

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

وكونى أعرف بصدق وحق ، فإن معرفتى تغدو درجات فى سلم ارتقائى إلى معرفة أسمى هى معرفة الله تعالى : وكونى إنسانياً مهتما بشئون الإنسان وبكينونته ووجوده ومصيره ، ومتعرفاً على سر ماينطوى عليه باطنه من عوالم وأكوان رغم صغر حجمه ستفضى بى هذه المعرفة حتماً إلى معرفة خالق هذا الإنسان وموجده .

وهذه المعارف الثلاث .

• المعرفة الكونية .

• والمعرفه الإنسانية .

• والمعرفة الإلهية .

يرتبط بعضها ببعض كالمقدمات بالنسبة للنتائج . أى إما أن تكون معرفة الكون والانسان طريقنا إلى الإيمان ، أو يكون الإيمان طريقنا إلى معرفة الكون والإنسان . فمن أى واحدة منهما يبدأ عقلنا رحلته المعرفية فإنه سينتهى لا محالة إلى المعرفتين الأخريين ، فكأن هذه المعارف معرفة واحدة (١) .

وعلى هذا يتضح أن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى كان من العلماء الذين لهم منهجهم المتفرد والذى ظل بمعزل عن التعقيدات المجافية للحق ، كما نتبه فى هذا المقام إلى أمر هام كثيراً ما كان الإمام النورسى ينبه إليه ويلفت نظر القارىء له فى أكثر من موضع من كليات رسائل النور ، وذلك الأمر الهام باختصار شديد هو — الإنسان — الذى من أجله كان القرآن .

(١) راجع مجلد الكلمات للإمام بديع الزمان وراجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ نظرية المعرفة عند بديع الزمان النورسى

فالقرآن حديث للإنسان أو عن الإنسان ، ولذا يقول بديع الزمان « إذا كان الإنسان هو لب الدنيا الذى تتوجه إليه رسائل النور بمعارفها الشاملة فلأنه كل شىء وماله الآخروى هو أعظم الأشياء وأكثرها أهمية وخطورة »(١) .

وهذا الأمر الهام يعتبر خاصية منهجية وهدفاً من أهداف كل رسالة سماوية ، ذلك أن قضية الألوهية ككل قضية من قضايا الدين المنزل لا يقصد منها تقريرها من الناحية النظرية ، كى يقتنع بها من يسير تحت لوائها أو يفحم من يعارضها أو يحاول التشويش عليها فحسب ، وإنما يقصد من ورائها بالدرجة الأولى أن تتحول الدعوة إلى كيان حى حتى تعبر عن شخصية أمة الإجابة التى استجابت لرسولها وتابعته على ما جاء به قولا وعملا ، حتى تشاهد مبادئه وقواعده النظرية فى صورة كائنات محسوسة متحركة ، ولذا يعلن النورسى أن سبب ما يعانيه أفراد المجتمع المسلم من أخطار يكمن فى غياب الوعى الإيمانى ، وليست هذه دعوى بدون دليل فقارىء كليات رسائل النور للنورسى وتحليلاته لا يحتاج إلى كبير عناء ليلحظ الربط المحكم والشد الوثيق بين قلب الكون وقلب الإنسان .

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلا له : « إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحقة ، فاظفر بمعرفة الله ، إذ حقائق الموجودات كلها ، إنما هى شعاعات اسم الله الحق ، ومظاهر أسمائه الحسنى ، وتجليات صفاته الجليلة »(٢) .

(١) راجع بديع الزمان سعيد النورسى ، المجموعة الكاملة لمؤلفاته ومرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان

(٢) راجع بديع الزمان النورسى ، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ص ٥٦

كما يشير إلى تفرد الاستدلال القرآنى فيقول: «إن أدلة القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى أولى وأحكم من أى طريق آخر وذلك لاعتماده فى استنباط وحدانيته تعالى على أصل الفطرة وعلى المشاهد الذاتية، وهى إحدى وسائل المعرفة البدهية، فطريقة القرآن الكريم، هى هداية البشر إلى وحدة الألوهية بعد تقرير ثبوتها بأصل الفطرة». قال تعالى: «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً»(١).

وفى ضوء هذا البيان دعا القرآن الكريم كتاب الله المقروء إلى النظر فى آيات الله فى السموات والأرض وجعل من الكون محرابا للفكر، وكتابا للمعرفة، ودليلا على وحدة التدبير والنظام فى الكون، ووحدة الإله المعبود، ووحدة المنشأ والمصير. هذه الوحدة الشاملة هى أساس الاستدلال فى القرآن الكريم، وهى التى تحدد معنى الوحدانية تحديداً كاملا، كما تحدد الصلة بين الإنسان وخالقه، والكون وما فيه.

والإيمان بهذه الوحدة على هذا الأساس هو السبيل إلى انطلاق قوى النفس الكامنة، والسمو بدوافعها والارتفاع بها عن شهواتها وتغلبها على عوامل ضعفها ... كل هذا مسطور فى القرآن الكريم كتاب الله المقروء كما هو فى الكون وما فيه كتاب الله المنظور، فكلاهما كتاب الله وآياته الكريمة، وذلك لأن صاحب الكتاب المقروء وهو القرآن الكريم — هو صاحب الكتاب المنظور وهو الكون وما فيه قال تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»(٢).

(١) سورة الإسراء الآية ٩

(٢) سورة البقرة الآية ٢

ولذا فالقارىء للفكر النورسى فى عطائه يقف على أنه يتجدد بالإنسانية لايقاظ منبهات الفطرة والتوحيد وفق معطيات الإنسان، وبهذا يصبح الإنسان هو الكلمة الأولى والنهائية بين الأرض والسماء. والذى كان من أجله القرآن الذى هو حديث للإنسان أو عن الإنسان.

لقد اختار بديع الزمان رسائل النور اسما لمباحثه لإدراكه أهمية النور الخارجى إذا كان لازما لحركة البشر فى الكون المنظور، فإن النور الداخلى لازم لحركة الكيان الإنسانى بما يشتمل عليه، وبغير هذا النور الداخلى لا يهتدى الإنسان لتحقيق الغاية من خلقه، ولذا تناول فى الكلمة الثانية والعشرين اثنى عشر برهاناً حول حقيقة التوحيد مشتملة على البراهين العقلية والكونية الكلية والجزائية ويعدها قطرة من بحر التوحيد(١).

كما يتحدث قبل ذلك فى الكلمة السادسة عشرة عن أربع أشعات عن النفس من فيض القرآن الكريم، واضعا يد القارىء على حقيقة التوحيد والخلق، وكون الصلاة معراجا ورحمة من الخالق بالمخلوق(٢).

كما يتناول فى نفس مجلد الكلمات الحديث عن الوحدانية والأحدية، ويدلل بإشارات ورموز وحجج بعضها فوق بعض لدعم ترسيخ الإيمان، والربط بين نوافذه وأزاهيره كما هو فى الكلمة الثالثة والثلاثين(٣)، وكما يقول فى اللمعات والمناظرات. كما تحدث فى مجلد المكتوبات عن حقيقة التوحيد، وبيان أهمية الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحبته، حديثا تقبله

(١) راجع بديع الزمان النورسى، مرشد أهل القرآن ص ٦٧

(٢) بديع الزمان النورسى مجلد الكلمات ص ٣١٠

(٣) المرجع السابق

الفطرة و تستقيم به النفس ، وأيضا فى مجلد مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان (١) .

وكل هذا لأن اعتقاد الوحدانية لله عز وجل هى شهادة القبول للدخول فى دين الله تبارك و تعالى — الإسلام — كما أنها عقيدة النجاة فى الآخرة .

ومن هنا أقام المنطق الاستدلالى لمعانى القرآن مجتمع النبوه ليصير مجتمع القدوة لجميع العصور ، كما أشرقت شمس الإسلام ، فبددت ضباب القلوب والعقول ، وأطلقت الطاقات الإبداعية والمنهجية لتعمل إدراكها فى المعقول والمنقول ، وفتحت للبشرية أفاقا رحبة للبحث والدرس ، ودعم القواعد والأصول ، ووجد المسلمون كمال المنهجية بالتربية والتعليم فى القرآن وفى الرسول — ﷺ — فهما على وجه اليقين تحقق لرواد البحث وطلاب الحقيقة كل مأمول قال تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٢) .

وقال تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »(٣) فكان الإسلام شاملا للمنهج الإلهى فى كتاب الله المنظور كما هو فى كتاب الله المقروء — القرآن الكريم — خاتمة هدايات الله للبشر قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »(٤) ، وحرصا على

(١) راجع بديع الزمان مجلد المكتوبات ص ٢٩٨

(٢) سورة الروم الآية ٣٠

(٣) سورة الإسراء جزء من الآية ٩

(٤) سورة المائدة الآية ١٦

بلوغ هذا الصراط المستقيم قرر القرآن الكريم عقائد الإيمان كلها مدعمة بالحجة والبرهان ، وليس به قضية بلا دليل أو دعوى بلا بينة ، حتى فى باب الأدب الخلق فقال : « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(١) .

ومجمل القول أن القرآن الكريم اتخذ فى تقرير العقائد منهجا واحدا ذا شقين أحدهما: لهدم العقائد المتوارثة التى أضحت فى عالم المعتقد لاغذاء فيها للقلب والروح .

وثانيهما : لبناء العقيدة الصحيحة التى تملأ جوانب النفس البشرية بالإيمان الصحيح .

وقد وضحت لنا سورة الإخلاص معالم هذا المنهج فى قول الله تعالى : « قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »(٢) .

والمتأمل لهذه الآيات التى اشتملت عليها هذه السورة القصيرة فى مبناها ، الغزيرة فى معناها « يقف على أنها اشتملت على أصول المنهج القرآنى فى جانبيه :

- جانب البناء ، وقد ورد فى صيغة الاثبات « الله أحد الله الصمد » .
- بينما جاءت الآيات التالية فى صيغة النفى لتصور جانب الهدم « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »(٣) .

(١) سورة فصلت الآية ٣٤

(٢،٣) سورة الإخلاص الآية ٤

ولذا يسوق الإمام بديع الزمان الاستدلال القائم على الشمول بمختلف الطرق التى سلكها الفلاسفة والمتكلمون فى موضع واحد من كتاب الله تبارك وتعالى لبيان البراهين التى تناولتها أقلام هؤلاء وأولئك فى موضع من كتاب الله، وذلك فى قوله تعالى: «يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون»(١).

فالعبادة هى التى ترسخ العقائد وتصيرها حالا وملكة، إذ الأمور الوجدانية والعقلية إن لم تنما وتربطها العبادة — التى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى — تكن آثارها وتأثيراتها ضعيفة.

والمتأمل فى هاتين الآيتين يقف على أن النداء الإلهى بدأ أولا بإثبات الصانع وتوحيده، ويكمن هذا البيان فى خمسة أنواع من البراهين تتمثل فيما يلى:

أولها: أنه استدل على التوحيد بأنفسهم وإليه الإشارة بقوله: «اعبدوا ربكم الذى خلقكم».

وثانيها: بالبيان لأحوال آبائهم وأجدادهم وإليه الإشارة بقوله «والذين من قبلكم».

وثالثها: بالبيان لأحوال أهل الأرض عامة وإليه الإشارة بقوله: «الذى جعل لكم الأرض فراشاً».

(١) سوره البقرة الآية ٢٢

ورابعها: بالبيان لأحوال أهل السماء وإليه الإشارة بقوله: «والسماء بناء».

وخامسها: بالبيان للأحوال الطارئية المتعلقة بالسماء والأرض وإليه الإشارة بقوله: «وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم»(١).

فإن السماء كالأب، والأرض كالأم. ينزل المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض، فيتولد منها أنواع النبات المختلفة الأشكال والطعوم كما هى فى العلامات الكائنة فى كتاب الكون المنظور.

ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال: «فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون»(٢).

ومن هنا تتضح لنا حقيقة البناء الذى أقام عليه الإمام بديع الزمان منهج رسائل النور فى التدليل على هذه القضية قضية التوحيد — كما هى فى القرآن الكريم وأنها برهان له، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته، لإيقاظ منبهات الفطرة المؤدية إلى تثبيتها فى القلب والإذعان لها، والرضا بها، واستخدام كافة الجوارح فى طاعة الله تبارك وتعالى.

وعلى ضوء هذا البيان يتضح أن مجلدات كليات رسائل النور قد ألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم وأثبتت كالشمس وضوحاً ما كان يظن بعيداً عن العقل، من حقائق الفطرة والتوحيد، كحقائق المعراج النبوى والحشر الجسمانى.. كما كانت نوراً لإيقاظ منبهات الفطرة فى النفس من خلال البيان للوعى الإيمانى القائم على الفطرة والتوحيد،

(٢،١) سورة البقرة جزء من الآية ٢٢

ولذا كانت هذه المصابيح بمثابة النور لكلياتها لانبثاقها من الوحى الإلهى (١) .

وكل هذه البراهين تستمد غذاءها من كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور ، الذى يتجلى فيه العرض القرآنى لقضايا علم أصول الدين ، بدليل الحكمة والعناية والإتقان والإعجاز والخلق والإمكان والحدوث .

ولذا فالكتاب الأول تنطق آياته بلسان المقال والكتاب الثانى تنطق آياته بلسان الحال .

الأول : اقتضت حكمة الله أن يكمل ويبلغ حد التمام فأحصى آياته عدداً .

والثانى : اقتضت إرادة الله تبارك وتعالى أن يبقى مفتوحاً إلى يوم الدين .

قال تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين »(٢) .

فالوجود كله دلائل شاهدة على وجود الله تعالى وكمال خلقه وعظيم

(١) واجع عجائب القرآن للرازى بتحقيق عبد القادر أحمد عطا ص ٢٩ ط الأولى ١٩٨٢ وراجع المجموعة الكاملة للإمام بديع الزمان سعيد النورسى وراجع دكتور عبد العزيز الدردير التفسير الموضوعى ص ٢٦ ط ١٩٨٢ م .

(٢) سورة الواقعة الآيات من ٧٥ : ٨٠

تدبيره « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »(١) ومن هنا أصبحت جميع العلوم الكونية والعقلية فى فكر بديع الزمان ، وسائل وألسنة تنطق بالوحدانية ، ونوافذ تطل على الآخرة ، وبهذا يصدق نهج مجموعة رسائل كليات النور فى براهينها الإيمانية « كلما شاب الزمان فإن القرآن يزداد شباباً ونضارة أكثر »(٢) .

كما كانت رسائل كليات النور بياناً تربوياً متكاملا كما يقول بديع الزمان « لقد علمنا القرآن الكريم — أن التصديق القلبي بوجود الخالق جل وعلا بصفاته المقدسة وبأسمائه الحسنى ، مستند إلى شهادة الكون جميعا »(٣) .

ولذا قامت رسائل النور على البيان القرآنى لعرض وتحليل حقيقة التوحيد من خلال الربط بين الشريعة الكونية والشريعه القرآنية لتأسيس اليقين ، عن طريق الربط بين وسائل الإدراك والشريعة الفطرية من جانب ، والشريعة الكونية والطبيعية من جانب آخر ، لتجلية مفاتيح الفطرة ، والدعوة إلى إيقاظ الوعى الإيمانى ، وربط المخلوق بخالقه عن طريق التكامل بين دائرتى التكاليف الإيمانية والتكاليف العملية .

كما قامت رسائل كليات النور على الربط بين دوائر الدين المتمثلة فى الإلزام والمسئولية والجزاء من خلال النظر فى كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور ، وأن الكتاب الأول أحكمت آياته عددا ، والكتاب الثانى ظل مفتوحاً ليأخذ منه الإنسان الزاد الذى يوصله

(١) سورة الأعراف جزء من الآية ٥٤

(٣،٢) الأستاذ احسان قاسم الصالحى فى مؤلفه بديع الزمان سعيد النورسى ص ٢١٩

إلى خالقه نقياً طاهراً حتى تتحقق الغاية المتوخاة من التوحيد بالفوز والسعادة فى الدنيا والآخرة .

ولما كانت رسائل النور تسلك فى إثبات حقائق الاستدلال القرآنى مسلكا متميزا يقوم على الربط بين الشريعة الإيمانية والشريعة الكونية ببراهين قاطعة لدى الإنسان فإننا نقتطف بعض هذه النماذج بالإضافة إلى ما تقدم كما أعدها الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى الآية الكبرى تحت مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه كما هى فى قول الحق تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً »(١).

نعم إن كل من يأتى ضيفاً إلى مملكة هذه الدنيا ويحل فى دار ضيافتها ، كلما فتح عينيه ونظر رأى مضيفاً فى غاية الكرم ، ومعرضاً فى غاية الإبداع .. ومعسكر تدريب فى غاية الهيبة ومتنزهاً جميلا فى غاية الاعداد والأحكام.. وكتاباً مفتوحاً كما قلنا فى غاية البلاغة والحكمة .

وبينما يولع الضيف السائح أن يعلم ويتعرف على صاحب هذه الضيافة الكريمة وعلى مؤلف هذا الكتاب الكبير وعلى سلطان هذه المملكة المهيبة إذ بوجه السموات الجميل المتلألىء بالنجوم النيرة يطل عليه منادياً: « انظر إلى، فأنا أعرفك بالذى تبحث عنه .

فينظر السائح ويرى : براهين الاستدلال المتعددة والمتميزة فى الكون المقام بلا عمد ولا سند كما فى القناديل المتدلية التى لا تعد ، بلا زيت ولا انطفاء، وتسيرها بسرعة فائقة بلا مزاحمة ولا مصادمة ...

(١) الإسراء الآية ٤٤ .

وفى إدارة تلك الكتل الهائلة التى لا حد لها ، بلا ضوضاء ولا صخب ولا اختلال كاستسلام الشمس والقمر لأداء وظائفهما دون إحجام أو تلكؤ ...

وفى جعل وجه السماء صافياً نقياً يتنظف طاهراً مما تلوثه أنقاض تلك الأجرام المزدحمة دون أن يرى عليه قذى ولا أذى ..

كل هذه الآيات والعلامات تدل على وجود خالق تلك السموات وعلى وحدته ، بعظمتها المهيبة هذه ، وبإحاطتها الكلية هذه ، وتشهد — كما هو مشاهد — بأن وجوده جل وعلا أجلى وأقرب من وجود هاتيك السموات .

لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته : السموات بجميع ما فيها ، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة : التسخير، والتدبير والتنظيم والتنظيف والتوظيف، الواسعة المكملة بالمشاهدة .

ثم إن الفضاء الذى هو محشو العجائب ومعرض الخوارق والمسمى بـ « الجو » نادى بصوت هادر ذلك القادم إلى الدنيا . . . ذلك الضيف السائح : انظر إلى لأرشدك إلى من تبحث عنه بشوق ولهفة ، وأعرفك بذاك الذى أرسلك إلى هنا .

فينظر إلى وجه الفضاء المكفهر وهو يتقطر رحمة !!! ويستمع إلى دويّه المخيف المرهب وهو يحمل رحيق البشرى !!!

فيرى أن « السحاب » الذى علق بين السماء والأرض يسقى روضة الأرض سقياً يتفجر حكمة ورحمة ، ويمد سكنتها بالماء الباعث للحياة ، ملطفاً به شدة الحرارة — أى شدة ضرام العيش — ويدرك تواً أينما كانت الحاجة .

ومع أن ذلك السحاب الثقيل الضخم يقوم بوظائف كثيرة أمثال هذه، فإنه يختفى ويتبدد فوراً بعد أن ملأ أرجاء الجو . فتنسحب جميع أجزائه لتخلد إلى الراحة ، فيتوارى عن الأنظار دون أن يترك أثراً بمثل ظهور واختفاء الجيش المنظم طبقاً لأوامر فورية .

ولكن ماأن يتسلم أمر « هيا لإنزال المطر » إلا ويجتمع ويملأ الجو فى لحظات بل يغمره فى دقائق ، ويتهيأ متأهباً كالجندى المنتظر أمر القائد .

ثم ينظر ذلك السائح إلى « الرياح » التى تجول فى الجو فيرى أن الهواء يستخدم فى وظائف كثيرة ، فى منتهى الحكمة والإبداع استخداماً كأن كل ذرة من ذرات ذلك الهواء الجامد — وهى لا تملك شعوراً — تسمع وتعى ما يلقى إليها من الأوامر الصادرة من خالق هذا الكون .

فتؤدى خدماتها بقوة ذلك الآمر « الخالق » وهيمنته وتنفذها بكل انتظام ودقة دون أن تتوانى فى شىء منها كاستنشاق جميع أحياء الأرض، أو نقل الأصوات أو المواد الضرورية لذوى الحياة كالحرارة والضوء والكهرباء أو التوسط لتلقيح النباتات أو ماشابهها من الوظائف الكثيرة، فهى تستخدم بجميع هذه الخدمات من قبل يد غيبية استخداماً فى منتهى الشعور والعلم . والحيوية .

ثم ينظر إلى « المطر » فيرى أن تلك القطرات اللطيفة البراقة العذبة التى أرسلت وأغدقت من خزينة الرحمة الغيبية، تزخر بهدايا رحمانية ووظائف غزيرة حتى كأن الرحمة قد تجسدت منصبة من عيون الخزينة الربانية على صورة تلك القطرات المتهاطلة ... ولهذا أطلق على المطر اسم « الغيث » و « الرحمة » .

ثم ينظر إلى « البرق » ويصغى إلى الرعد » فيقف على أنهما يستخدمان فى أمور بالغة الإتقان والأحكام ...

فيرجع بصره إلى عقله ويساور نفسه قائلا :

ان هذا السحاب الجامد الخالى من الشعور ، والمنفوش كالعهن ، لاشك أنه يجهلنا ولا يعرفنا ، ولا يمكن أن يسعى بنفسه لإمدادنا رأفة بنا ورقة لحالنا ، ولا يمكن أن يظهر بادياً فى السماء ويختفى منقشعاً بدون أمر ، بل لا بد أنه يسعى فى وظيفته وفق أمر صادر من آمر قدير مطلق القدرة ، ورحيم مطلق الرحمة .

حيث يختفى دون أن يعقب ، ثم يظهر فجأة ، متسلما مهام عمله ،فيملأ عالم الجو ويفرغه بين الفينة والفينية تنفيذاً لأمر سلطان جليل متعال فعال ، فيخط على لوحة السماء دوما بحكمة ، ويمحو بالإعفاء محولا إياها إلى «لوحة المحو والإثبات» ، وإلى صوره مصغرة للحشر والقيامة . إذ يركب السحاب متون الرياح بأمر من حاكم مدبر ذى ألطاف وإحسان وذى إكرام وعناية ، حاملا خزائن أمطار واسعة سعة الجبال وضخامتها مسعفاً بها مواضع من الأرض محتاجة إليها ... ثم يطلقها ضاحكة بالأزاهير والرياحين، ويخفف من شدة لفحة الشمس ويسقى بساتين الأرض ومروجها ويغسل وجهها وأديمها ويطهرها من الأقذار لتشرق بالصفاء والرواء .

ثم يحاور ذلك المسافر الشغوف عقله قائلا :

إن هذا الهواء الجامد الذى لا حيـاة له ولا شعور ولا ثبات له ولا هدف وهو فى اضطراب دائم ، وهيجان لا يسكن ، وذا عواصف وأعاصير لا تهدأ ، تأتى إلى الوجود وتبرز بسببه . وبصورته الظاهرة — جميع الأعمال والوظائف والنعم والإمدادات العامرة بالحكمة والرحمة والإتقان ، مما يثبت بداهة : أنه ليست لهذه الرياح الدائبة حركة ذاتية ، فلا تتحرك بذاتها أبداً وإنما يحركها أمر صادر من آمر قدير عليم مطلق وحكيم كريم مطلق ، وكأن كل ذرة من ذراته تفهم وتسمع — كالجندى

المطيع — كل أمر صادر من لدن ذلك الآمر وتدركه فتنقاد إليه ، وتقوم بمهمة تنفس الأحياء وتساهم فى إدامة حياتها وتشارك فى تلقيح النباتات ونموها ، وسير السفن التى لا وقود لها . . وكثير من الخدمات العامة الكلية ، فضلا عن أن ذرات الهواء مركبة من مواد بسيطة كالأذوت والأوكسجين ومع تماثل بعضها لبعض فلا أراها إلا أنها تستخدم بيد حكيمة بانتظام كامل فى جميع أنماط المصنوعات الربانية .

لذا نطق السائح قائلا : حقاً مثلما صرحت الآية الكريمة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض »(١) .

فإن الذى يجرى أمره على الهواء ويستعمله فى خدمات ووظائف ربانية غير محدودة ، بتصريف الرياح ، وفى أعمال رحمانية غير محدودة بتسخير السحاب ، ويوجد الهواء على تلك الصورة ، ليس إلا رباً واجب الوجود ، قادراً على كل شيء ، وعالماً بكل شيء ذا جلال وإكرام(٢) .

ان ذلك المسافر الذى أرسل إلى الدنيا لأجل الإيمان والذى قام بسياحة فكرية فى عالم الكائنات للاستفسار عن خالقه من كل شيء ، والتعرف على ربه فى كل لحظة ، وترسيخ إيمانه بدرجة حق اليقين ، بوجوب وجود إلهه الذى يبحث عنه خاطب هذا السائح عقله قائلا : عند رؤية كل آية من آيات الكون لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

(٢) راجع المجموعة الكاملة لمؤلفات رسائل النور ج ٤ ص ١٤٥ وراجع مجلد الآية الكبرى ص ١٣٤ « اللمعات » .

وهكذا يوقفنا الإمام بديع الزمان فى مؤلفاته كليات رسائل النور على ماهية الاستدلال القرآنى وأنه خاطب الإنسان ككل بما فيه من إرادة وعقل ووجدان — أى خاطبه بجانبه العقلانى والوجدانى هذا من ناحية ومن ناحية أخرى — خاطب جميع بنى البشر كل على قدر درجته من الفهم والإدراك ، كما تميز بالثبات والتنوع لأنه خطاب الخالق للبشر كلهم ، مستمداً من أصل طبيعتهم ومن رسالتهم الإلهية التى جاءت عامة للبشرية جميعا ، معتمداً فى المقام الأول على الفطرة الإنسانية .

ولذا انطلقت كليات رسائل النور من البيان الإيمانى لآيات القرآن الكريم إلى أعماق الأنفس والآفاق فى ترابط كونى يوقظ العقل ويريح القلب ويشبع الوجدان بل الكيان الإنسانى كله عبر نظرة لأبعاد المعرفة الكونية الساطعة التى تشرق على كافة الكائنات من خلال قول الله تعالى « الله نور السموات والأرض » .

ومن هنا فالإنسان الذى يدرك هذه المفاتيح يسمو بنور الإيمان حتى يستطيع أن يدرك حكمة المخلوقات من جانب كما يتخلص من ضيق الحوادث من جانب آخر مستنداً إلى قوة إيمانه فيبحر متفرجا على سفينة الحياة فى خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الإيمان(١) .

ومن هذا المنطق ستظل رسائل النور ألسنة تنطق بالوحدانية ، ونوافذ تطل على الآخرة لدوام مصدرها القرآنى وكما قال بديع الزمان :

---

(١) راجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسى مجلد الكلمات ص ٣٤٨ من مجموعة كليات رسائل النور .

« إن رسائل النور درس قرآني يوافق أفهام العصر »[١] .

وعلى كل ما تقدم يتضح أن المنهج القرآني في الاستدلال جاء ليحمل عن الإنساني إصر المناهج البشرية ، ويرشده إلى الطريق المستقيم حيث تلتقي طاقات الإنسان كلها في بوتقة فطرته السليمة ، وتتوحد جميعاً لترتفع إلى الحق تبارك وتعالى مشيدة بعظمته مقرة بوحدانيته ، معلنة عبوديتها لله رب العالمين عن علم وبصيرة . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[٢] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) راجع بديع الزمان النورسي حقيقة التوحيد ترجمة الأستاذ قاسم الصالحي ص ٥٧ وراجع الدكتور محسن عبد الحميد النورسي الرائد الإسلامي الكبير ص ٥٠

(٢) سورة آل عمران الآية ٨